

أثر

خواطر أدبية وفلسفية

أسامة الرفاعي

بعد وضع آخز تقطة لآخر سطر في الحكاية،
ظل الكاتب متمسكًا بقلمه،
شريد الفكر، مربوط اللسان،
فقط أعينه تكاد تمسح دمعها،
ولكنها عجزت عن ذلك.

لم تكن مجرد أحرف أحسن رسمها فوق ورقٍ ملوّن،
بل كانت أيامًا ملتُّمة يخشى ذكراها.

إهداء



إلى غريب هذا المساء الذي لم أعرفه بعد،
وإلى من يخفي في صدره كثرة الأحاديث،
ومن لم يجد من يبوح له، مثلي تمامًا، نحن غرباء،
لعلي ما أهديك، في طيات هذا الكتاب،
بعضًا مما تخفيه داخلك، وتظن أنك فقدته.

على حافة الطريق

نقف على حافة الكلام، لنستمع إلى صوت وجداننا، ماذا بعد حديثاً طويل، هل نكرر نفس الشعور مع أسماء وملامح أشخاصاً جديدة، أو ننسحب من مؤامرة شارفت على التطبيق، ونحن أحد أطرافها؟ هذا ما يسمى المجتمع!

نحن أرواح أرهقها العطاء، وأثقلتها الخيبات حتى وجدت نفسها تقف على مسافة من العالم، ليس لانقطاع الرغبة بالاقتراب، بل لعدم قدرتها على العودة محملة بالخذلان العبثي.

لا العزلة مسكننا، ولا جنتنا الفردوس، فهي إما ضجيج صاخب الملامح لا يسمعه المارة بل يروه في ملامحنا، وإما سلاماً بارداً يسكن جفن عينيك البلورية.

ومع مرور عشرين ربيعاً أو أكثر، ومع استنزاف الطيبة، تصبح أكثر حرصاً على ما تبقى بداخلك منها، فلا يعود العطاء اندفاعاً نحو الجميع، ولا تصبح الثقة هدية تمنح عند أول لقاء.

ومع استنزاف روحك، وفي شتاءٍ غزير المطر ترافقك حسناء تحت مظلتها بصمت لعدم وفرة المعرفة وغرابة الموقف، فهي رافقتك شفقة، ظنّاً منها أنك لا تملك مظلة، وليست تدري أنك حتى الآن لم تلاحظ هطول المطر.

وحين اقتربت من منعطف الطريق أيقظت انتباهك بسؤالها: «إلى أين تتجه الآن؟»

هنا أعادتك إلى واقعك الحالي، وأنك في محض قرار قد فرض عليك، وهو التعارف القسري، فإما أن تمنح ما تبقى من روحك فرصة للنجاة، فتتابع مسيرك تبعاً لخطوات طريق صاحبة المظلة، أو تنعطف عكس

الحديث، الذي في ختامه ستتعرف على تاريخ ميلادها، ولونها المفضل.

في هذه اللحظة، مفترق الطرق لم يعد يمثل لك تغير مسار المدينة، بل مسار أياماً ستخوضها، إما وحيداً وإما جوار غريبة قد ظللتك، خوفاً عليك من الابتلال.

وهنا ينتابك الكثير من الشعور، وقليلاً من الأفكار، لأنك قد نضجت ولكن، هو قرار واحد يغير طريق عودتك، فإما عائد تجر خيباتك القديمة، وإما ترافقها تحت مظلتها، وأنت مثقل بأحاديث وتفاصيلها الوردية.

السجناء الأحرار

نولد دون أن نعرف أسماء القيود، ثم نكبر فنمنحها أسماء أكثر لطفًا؛ نسمي الخوف احترامًا، والتردد حكمة، والتنازل عن أحلامنا مراعاةً للآخرين. حتى يأتي يوم نتساءل فيه: هل عشنا الحياة التي أردناها، أم الحياة التي اعتاد الآخرون رؤيتنا فيها؟

هو مجرد سؤال، ولكن يحمل في جوفه مرارة الندم، ندمًا يرصفه بين أسطر روايته الأولى، روايته التي عاشها في داخله، متخفيًا من مجتمعه الذي ينعت الكاتب بالمجنون، وينهره بالنظرات الساخرة عن القراءة.

لم يجرؤ يومًا عن البوح بعيبه، وهو أنه كاتب؛ عيبه؟ نعم، لقد ظن حلمه عيبًا، حتى جالس أحد كتّاب المدينة، وكان يُقال له أستاذ.

وفي خضم اللقاء الذي كان فيه يبحث عن إجابات تراوده في خاطره، تجرأ على خوض الحديث والحوار، حينها أدرك أن حلمه هو تميزه، وهنا امتلأ بالندم الداكن، لأنه أقنع نفسه طوال الوقت أن التردد حكمة، وأن الانتظار يمنحنا فرصة ذهبية.

وفي هذه اللحظة، أدرك أن الفرصة الذهبية هي فقط أن تقف وتقول: أنا مختلف.

وبعد تلك اللحظة، تنخرط في صراع اختلاف وجهات النظر، ولكنك الآن غير مثقل بنظرات العتاب، بل هي نظرات شوق لمعرفة ما يدور في جوف فكرك.

هي محض صدفة بحتة، جمعت بين كاتب ينشر فكره، وكاتب أسير حلمه، ولكن المصادفة هذه كانت كفيلة لولادة روح قادرة على البوح بما يجوب داخلها، دون الشعور بالخوف والخجل.

وبعد ولادة مشاعر الاختلاف، تنمو معها رغبة بالرحيل، والإقلاع عن مشاعرك القديمة، التي سجنت سعادتك الحالية طويلًا.

ولكنك الآن تصارع غرابة الأرصفة الحديثة، وحنينك إلى أناسك القدامى، ولكنك تدرك أخيرًا أن التعافي من قيود الماضي هو أول طريق السعادة.

ما تبقّى منّا

أياماً تصارع بنا الساعات، نبحر فوق سفينة نوح التي نسجناها بخيوط آمالنا، وتكسر ألواح نسيجها هضبة ثلج، ثم الكثير من الثلج الذي ينثر أحلامنا على صفيح البحر، فمنها ما يغرق، وكثيراً ما يبقى يلوح لنا بما تبقى من جسده يطوف فوق محيطاً هائج، وتمضي بعدها الساعات أياماً، والأيام سنين، ونلبث حينما نصل أول فصول حياتنا حائرين.

وبعد منتصف الليل، عائد بحصاد خيبته اليومية، يجر ما تبقى به من أمل، ليخزن بعضاً من روحه الثكلى بين محفوظاته الثانوية، لينكب على ذاكرته بعضاً من شغف الماضي، حينما كان يهتم بتفاصيل المحفوظات.

وبينما يقلب كفيه بين كتبه وأشيائه التي أخذها من ماضيه البلوري، تصادفه ورقة قد شاخت، ينفض غبار الغرابة عنها وينكب في تفاصيلها.

ورقة من الماضي، تخبره عن الفتاة التي سعى وشق عنان السماء ليتزوج بها، وقصت عليه حكاية المنزل الذي سيبنيه على سفح جبل وتفاصيل غرفه، وأعطته من الحكم أروعها بأن الناس إما ذئاباً وإما ملاكاً، لا يوجد رمادي، ولم تنسَ بإخباره عن حلمه البسيط، أنه سيصبح روائياً وكاتباً معروف، وأخبرته عن مدة حبه لصديقه عمر وأجمل الأحاديث معه.

وبعد قراءة كل هذا، قلب الورقة وأكمل كتابة ما توقف عن كتابته منذ عقد من الزمن:

إلى روحي البريئة الماضية، فإني أشهد بأنني حرصت على بعضها، فأما عن حبيبتي الهجرية، قد سافرت ولاقت من

هو خيراً، هكذا أخبرتني في صمتها، ولكنها تشكو إليَّ عناءها في كل ليلة في أحلامي، حتى أصبحت أهرب إلى نومي لألقاها.

وبيتي الذي رسمته فوق سفح الجبل، قد سبقني إليه مجهولاً ورث عن أبيه الكثير، بينما كنت مشغولاً في إعانة حياتي، وتخليت عن حلمي، بعدما أدركت أنه لن يجلب لي ثمن قوت يومي مع عائلتي.

وأما عن صديقي عمر، فهو ما حافظت عليه، بقي هو وبعضاً من روحي التي ما زالت متمسكة برمادية أحلامنا أيها البعيد، فقد حملتني الكثير من التوصيات، فاعذرني إن لم أفِ بوعودي لك، فإني قد حاولت عقداً كاملاً على أن أكون كما تشاء، ولكن الظروف اختارت ما تشاء.

ماذا بعد؟

في الحب والرغبة، القسوة والخوف، وفي العائلة والمسؤولية، والحياة والجنس، وفي كل قرار، هنالك ثوانٍ معدودة أو ساعات طويلة، نسميها «ماذا بعد».

يطاردنا شبح المساءلة النفسية بعد أن تغرق الشمس في المحيط. هل نحن مليئين بالندم، وهل ندرك معنى الندم حقاً، أو هو وهن خيال نخلقه لنمارس الحياة؟

ماذا لو جاءتنا آخر رسالة ولم نجب؟ لم نجب خوفاً من أن نندم على الاستجابة. هل نسميه ندماً بعد أن ندرك بأنها الرسالة الأخيرة؟

هي رسالة طالما انتظرناها، ولكنها تحمل في حجرتها اسماً ميزنا به المرسل، ولَبِثَ أنه أضل طريقنا، ونسيناه، ولكن بقي باللقب في الذاكرة والهاتف. رسالتك غير المنتظرة جاءت فاقدة البهجة، وأثقلتنا بالسؤال، فالجواب على رسالتك أثر، فإني أخشى العودة من الحديث وحدي، فقد اعتدت هجري، وأخشى عدم الرد فأعود برفقة ندمي. لست أدري إن كان النوم وحيداً أشد رعباً أم النوم جوار الندم؟

فهل من ترك عالمه ليخوض معركته الأولى يندم إن فشل، وإن قسا بعدها يندم؟ فهل يندم على عدم خبرته أو على مجازفته؟

وبعد أرق طويل، يراودك السؤال نفسه: إلى أي مدى أفهم نفسي؟

الإجابة المخادعة هي أنك تفهم نفسك جيداً، ولكن ما هي إلا دقائق تخوض فيها معركتك المريرة مع وجدانك، حتى تخضع للواقع والحقيقة التي تراود ذاكرتك فيها: من أسفر عن كل هذا الخراب داخلك؟ ألم تكن مُصرّاً على قرارك في تلك الساعة، وألم تكن تدري بالألم الناتج عنها؟ إذاً كيف تفهم نفسك وأنت تؤتيها المهالك؟

وبعد أرق طويل، يأتيك مسكّن الوجدان بزيّه الحكيم ليطفئ لهيب الحديث: الأعذار التي نلقيها لنسكن ضجيج السؤال. ولكن هل دوماً نجد عذراً يعزينا ويبرئنا أمام نفسنا التي نقتسم معها الندم والخراب، دون رغبة منها عن قراراتنا؟

أنا بخير

ما هو السر الذي نواريه في مخابئنا، ولماذا لا نجرؤ على الحديث به؟ وماذا نسمي ذاك الشعور الذي يتسلل إلى أعماقنا حينما نصادف ما يذكرنا بسرنا؟

هل نحن مخطئين أم مخلصين حينما احتفظنا بسرنا؟ هل هو سر، وإن كان لا، فلماذا نخبئه؟

هو يا عزيزي ليس إلا شعوراً احتفظنا به لأنفسنا، لا رغبة لنا بخسارته حينما يصبح مشاع. ندفن بداخلنا الكثير من ذا الشعور، جوار قلبنا، وبين أضلع صدرنا، ونكاد نلامسها بين شهيقاً وزفير، حتى نتحول إلى ركام تالف، ساكن الملامح، وصلب المشاعر.

حتى نلتقي بوهن وجهاً مألوف، ويلقي علينا من السؤال أخطرها، لجهل منه عن سوء حالنا الداخلي، وفضوله بالحديث معنا. لكننا نصاب بالعمى عن رغبته، وحتى

وجوده لم يعد يلامس نظرنا، فقد سألنا: «كيف حالك؟».

يحسبها هيناً، فيشعل داخلنا نهضة الذاكرة الروحية. نريد أن نخبره بأننا بخير، لنبقي ما بداخلنا من سر، ثم يملأ أعيننا لهيب الحرقة، فنتراجع عن الجواب، ونحاول أن نصف كيف نحن بخير، لنكتشف أننا ممتلئين بالحزن.

ولكن هذه الكلمة حتى لا تبرئ شعورنا، فنحن نتصنع الضحك. إذاً ما تلك الفوضى التي أثارها سؤالك؟

فنجد ابتسامة زائفة تشد بعضلات الوجه خارجاً، ونخبره بأننا بخير.

بخير لأننا لم نخبره بسرنا، وأن نهر الثلج الذي أفاض قبل لحظات قد أطفأناه، وعن طاعون الوحدة ما أخبرناه، وأحلامنا المزخرفة على جدار الصدر قد أخفيناه، وعن مدى رغبتنا بالحديث عمّا بداخلنا ما نطقناه.

ولكن بعد مسافة قصيرة من الحديث نكتشف تناقض رغبتنا، فنحن انتظرنا أن يكتشف الخراب الذي بداخلنا، ولكن خاب ظننا، فأبحنا بالجواب المعتاد:

«أنا بخير».

أحببتُ حاجتي إليك

أيّ شيءٍ نحبّه حين نحب؟ أهو ذاك الوجه الذي نحفظ تفاصيله، أم انعكاس أرواحنا في عينيه، وقد خفّت عنها وحشة العالم؟ ولماذا نضيق بصمت من نحب، كأن صمته يُغلق آخر نافذة يدخل منها الضوء إلينا، وكأن كل حديث لم يقله لنا قد أخفاه عنّا، وكل ساعة قضاها وحده قد اقتطعها من أعمارنا؟

بعد منتصف الليل، وبين أشياء لم أجد شجاعة التخلّص منها، صادفت رسالتك. كانت مطويّة بعناية، كأنني طويتُ معها صوتك، وأبقيتُ الورق وحده قريبًا منّي؛ حفظتُ شكلها أكثر مما حفظتُ ما أردتَ قوله فيها. فتحتها، فتسرّب من طيّاتها مساءٌ قديم، وعاد إليَّ شيء من تلك الرجفة؛ رجفة من ينتظر أن يجد اسمه في قلب الحديث، ولو كان الحديث ينزف من جرح قائله.

كتبتَ يومها: «أنا متعب، ولا أعرف كيف أشرح لك».

أتذكّر كم آلمتني تلك الرسالة. لم تسأل عن يومي، ولم تخبرني بأنك اشتقت إليَّ، ولم تترك لي في آخرها كلمة أنام إلى جوارها. ظللتُ أحصي ما غاب منها، حتى غاب عنّي أنك كنت حاضرًا فيها بكل تعبك، تمدّ إليَّ شيئًا أثقلك، وتنتظر أن أفسح له مكانًا.

والآن، بعد كل هذا الغياب، أقرأ السطر نفسه. كيف مررتُ فوق تعبك لأبحث عن طمأنينتي؟ وكيف عاتبتك على برودة كلماتك، ولم أسألك عمّا أطفأ دفأها؟

كنتُ أقول إنني أعرفك، وأفاخر بمعرفتي لما تحب وما تكره، بموعد قهوتك، وبالأغنية التي تعيدها حين يضيق يومك. ولكنك حين خرجتَ عن تفاصيلك المألوفة ارتبكتُ. لم أعرف ماذا أفعل بوجهك الحزين، ولا بصوتك الذي لم يجد حديثًا يؤنسني. أردتُ أن تعود سريعًا إلى حالك، فقد اعتدتُ أن أستريح هناك.

هل أحببتك، أم أحببتُ قدرتك على انتشالي من وحدتي؟ وهل كان اشتياقي إليك يعرف طريقه إلى قلبك، أم يتوقّف كل مرة عند حاجتي إلى أن يشتاق إليَّ أحد؟

لا أنكر ما شعرتُ به. ما زالت بعض الأماكن تضيق حين أتذكّرك، وما زلتُ ألتفت أحيانًا إلى صوت يشبه صوتك. ولكنني أخشى أن يكون صدق الشعور قد أعفاني، في ظنّي، من عناء فهمه. حسبتُ أن شدّة خوفي عليك تكفي، حتى حين كنتُ أثقل عليك بأسئلتي، وأن حزني لغيابك يمنحني حقّ محاسبتك على كل ما فعلته بعيدًا عنّي.

ربما حملتُ إليك جوعًا قديمًا، وانتظرتُ منك أن تعرف عمره دون أن أخبرك. وكلما منحتني شيئًا من روحك، هدأ قليلًا، ثم عاد يطلب المزيد. وأنت، ماذا بقي لك وأنت تحاول أن تجعلني مطمئنًا؟

أعدتُ الرسالة إلى الطاولة، وأخذتُ هاتفي. كتبتُ

اعتذارًا طويلًا، ثم توقّفتُ عند آخره، حيث سألتك أن تجيبني.

ظللتُ أنظر إلى ذلك الطلب. كان صغيرًا، مهذّبًا، ومألوفًا على نحو أخافني.

محوتُه، وبقي إصبعي قريبًا من الإرسال.

ثم وجدتني أتخيّل وجهك حين تقرأ، وما قد تقوله، والوقت الذي ستحتاجه لتجيب...

فإلى أيّ حدٍّ أستطيع أن أطرق بابك، وأترك لك حرية ألّا تفتحه؟

كلّ شيءٍ كان واضحًا إلّا أنا

كلّ شيءٍ كان واضحًا إلّا أنا. الشارع الذي يمتدّ أمامي، وواجهات المحالّ، وظلال المارّة التي تعرف أين تستريح كلّما اعترض الضوء طريقها. مشيتُ بين وجوهٍ واضحة، ولا وجهٍ منها دلّني عليّ. كنتُ أرى التفاتاتهم، وأسمع أحاديثهم المتقطّعة، وأتساءل: كيف يبدو وجهي لمن يعبرني الآن؟ وهل أبدو له شخصًا يعرف إلى أين يذهب؟

أبطأتُ مشيتي، كأنّ السرعة كانت تمنع سؤالًا من اللحاق بي. مرّ الناس من جانبي، وبقيتُ أتأمّل يديّ؛ خطوطهما الدقيقة، وندبةً صغيرةً لم أعد أذكر كيف وصلت إليّ. كم مرّةٍ حملتُ بهما أشياء اخترتُها؟ وكم مرّةٍ امتدّتا لأنّ أحدًا أعطاني شيئًا، فحملتُه ومضيت؟

رفعتُ يدي إلى وجهي، صففتُ شعري، ومرّرتُ أصابعي على جبيني، كأنّني أرتّب ملامحي لاستقبال أحد. لكنّ أحدًا لم يكن ينتظرني. فلِمَن كنتُ أتهيّأ؟ وأيّ عينٍ بقيتُ أحسب وجودها، حتّى وأنا أمشي وحدي؟

توقّفتُ أمام زجاج محلّ. رأيتُ وجهي تتداخل فيه البضائع المعروضة خلفه، ووجوه العابرين على سطحه. تحرّكتُ قليلًا لأرى نفسي، فتغيّر موضع الأشياء وبقي بعضها فوق ملامحي. أطلتُ الوقوف؛ كان في تلك الصورة شيءٌ مألوف، شيءٌ أفعله كلّ يومٍ دون زجاج.

أستيقظ فأجد يومي قد امتلأ قبل أن أختار فيه شيئًا منّي. رسالةٌ تنتظر جوابًا، وموعدٌ وافقتُ عليه، وحديثٌ أعرف الكلمات التي ينبغي أن أقولها فيه. أتنقّل بين ذلك كلّه بخفّة من يعرف دوره، ثمّ أعود مساءً متعبًا، ولا أعرف أيّ جزءٍ من هذا التعب يخصّني.

هل يمكن أن نمضي يومًا كاملًا في الإجابة، ولا يسألنا أحدٌ سؤالًا نرغب في سماعه؟ وهل نعتاد تلبية النداء، حتّى ننسى أنّ لنا رغبةً لا تحتاج إلى من ينادينا بها؟

اهتزّ الهاتف في جيبي. أخرجتُه سريعًا، وبدأتُ أكتب: «أنا في الطريق». توقّفتُ عند العبارة، ونظرتُ إلى الشارع. كنتُ قد سلكتُه كعادتي، ولم أسأل نفسي منذ خرجتُ إلى أين أريد أن أصل.

محوتُ الكلمات، وكتبتُ أنّني سأتأخّر قليلًا.

عند عتبة المفترق مقعدٌ صغيرٌ تحت شجرة. مررتُ به كثيرًا، ورأيتُ أوراقها تتبدّل من فصلٍ إلى آخر، ولم أجلس يومًا. هذه المرّة اقتربتُ، ومسحتُ عن طرفه بعض الغبار، وجلست.

ظلّ الشارع على حاله. الأصوات مرتفعة، والخطوات تتلاحق، والضوء يكشف أدقّ الشقوق في الرصيف. وضعتُ يديّ على ركبتيّ، وتركتُهما تستريحان. لم أعرف فجأةً من أكون، ولم أجد اسمًا لكلّ ما كان يزدحم داخلي.

لكنّني رغبتُ في البقاء قليلًا.

وحين عاد الهاتف يهتزّ، تركتُه حتّى صمت. مرّت ظلّةٌ بطيئةٌ على الرصيف، ثمّ انزاحت، وبقيتُ حيث كنتُ؛ لا أنتظر أحدًا، ولا أعتذر عن تأخّري.

فوقي، تحرّكت الأوراق كأنّها تتبادل سرًّا لا يعنيني فهمه.

مددتُ يدي إلى طرف المقعد، وثبّتُّها هناك، كأنّني أخشى أن أنهض قبل أن أتعرف إلى هذا المكان الذي لم أعد غريبًا عنه.

وعندما خفّ الضوء، لم أعد أبحث عن الطريق.

تركتُه يمرّ من أمامي.

روتين

كلّ صباحٍ يشبه الذي قبله.

أفتح عينيّ فأجد النهار قد ارتدى ثياب اليوم نفسه. أمشي إلى العمل كما لو أنّ الطريق تحفظ خطواتي أكثر ممّا أحفظها أنا.

قبل أن أغادر السرير، أكون قد تذكّرت ما ينتظرني. أمدّ يدي إلى الهاتف لأُسكت المنبّه، وأبقيها فوقه لحظة، كأنّني أستطيع تأخير الصباح إن لم أرفع أصابعي. أنظر إلى الساعة، وأحسب كم بقي لي من الوقت؛ دقائق قليلة أساوم بها النهوض، ثمّ أدفع ثمنها عجلةً طوال الطريق.

أغسل وجهي، وأترك الماء يجري فوق يديّ أكثر ممّا يلزم. في المطبخ، أشرب بعض القهوة واقفًا. أعرف موضع المفاتيح، والقميص الذي سأرتديه، والوقت الذي ينبغي أن أُغلق فيه الباب. كلّ شيءٍ جاهز، وجسدي يتبع ما أعددته له، بينما شيءٌ في داخلي ما زال جالسًا على طرف السرير.

أخرج، وأتفقّد جيوبي عند العتبة. الهاتف، المحفظة، المفاتيح. أُعيد العدّ، ثمّ أمضي. لا أعرف ما الذي أشعر أنّني نسيته.

في الطريق، تتكرّر الوجوه دون أن أعرف أصحابها. بائعٌ يرفع باب محلّه، وسيارةٌ تقف في الموضع نفسه، ورجلٌ يعبر مسرعًا حاملًا فطوره. أراقبهم قليلًا، ثمّ أنشغل بحساب التأخّر. وحين أصل، أكتشف أنّني لا أتذكّر شيئًا من المسافة الأخيرة؛ لقد وصلت، وهذا يكفي لبدء اليوم.

أجلس، أفتح الحاسوب، وأشعر أنّ أصابعي تكتب قبلي.

أقرأ الرسائل، وأجيب، وأفتح ملفًّا تركته بالأمس. أتذكّر ما ينبغي فعله، وأؤجّل السؤال عمّا أشعر به. يأتي أحدهم بطلبٍ صغير، ثمّ يتبعه آخر. لكلّ طلبٍ مكانٌ أجده في يومي، حتى حين أكون قد ضقتُ به.

أضحك حين ينبغي أن أضحك، وأومئ حين ينبغي أن أومئ. وفي داخلي شيءٌ يتعب بلا صوت.

أحيانًا، أظلّ أنظر إلى السطر نفسه. أفهم كلماته، لكنّني لا أستطيع حملها إلى ما بعدها. أُعيد القراءة، وأتحرّك في مقعدي، وأرفع الكوب إلى فمي، فأجده فارغًا. لا أتذكّر متى أنهيته. أضعه جانبًا، وأعود إلى السطر.

لا أكره عملي ولا أحبّه. صرتُ أمرّ به كما يمرّ الهواء من نافذةٍ مواربة؛ لا دخولٌ كامل، ولا خروج.

وحين تأتي الاستراحة، أجلس بالطعام أمامي، وأتفقّد الهاتف. أريد شيئًا يقطع النهار، لكنّني أتنقّل بين الصور والأخبار، ثمّ أرفع رأسي لأجد الوقت قد انتهى. أُغلق العلبة، وأحتفظ بما بقي منها لوقتٍ آخر. حتى الجوع صار ينتظر فراغي.

أراقب الساعة في آخر النهار، وأنجل قليلًا من بطئها في عينيّ. أعرف أنّها تمضي كما مضت دائمًا، لكنّني أنتظر منها أن تحملني إلى الباب. وحين يحين موعد المغادرة، أُغلق الحاسوب، ثمّ أتردّد وأفتحه لأتأكّد من أمرٍ أخير. أقف، أجمع أشيائي، وأخرج حاملًا في رأسي ما لم أُنجزه.

أعود آخر النهار وأكتشف أنّ التعب ظلّ معي، لم أتركه على المكتب.

في طريق العودة، أتخيّل ما سأفعله حين أصل. سأستحمّ، وآكل بهدوء، وأفتح الكتاب الذي تركته منذ أيّام. وربما أتّصل بصديقٍ طال تأجيلي له. تبدو الأمسية واسعةً وأنا بعيدٌ عنها، حتى إذا دخلتُ البيت، جلستُ بثيابي قبل أن أفعل شيئًا.

أضع المفاتيح قربي، وأُريح رأسي. تمرّ دقائق لا أعرف عددها. تصلني رسالة، فأقرأها من الإشعار وأعد نفسي بالردّ حين أستريح. أعرف هذه الجملة؛ أقولها لأشياء كثيرة، وبعضها لم يعد يسألني.

أفتح الكتاب، وأجد العلامة في موضعها. أقرأ قليلًا، ثمّ أعود إلى الصفحة السابقة لأتذكّر. أشعر بالضيق، فأُغلقه برفق، كأنّني أعتذر له. كان هذا الوقت الذي انتظرته طوال النهار، فكيف وصلتُ إليه ولم يبقَ منّي ما يكفي لعيشه؟

وحين أتأهّب للنوم، أتذكّر عملًا تركته ناقصًا، وثيابًا ينبغي تجهيزها، ومنبّهًا يجب ضبطه. أختار الساعة نفسها، وأضع الهاتف إلى جواري. أُطفئ الضوء، وأحاول أن أنام قبل أن يبدأ الحساب: كم بقي من الليل، وكم سأخسر من الصباح إن تأخّرتُ في النوم؟

أُغمض عينيّ، فيأتيني صوت المنبّه قبل أن يرنّ.

فأسأل نفسي: من الذي يعيش يومه الآن؟ أنا؟ أم الروتين؟

ما لم نعشه

ما الذي نخاف خسارته حين نسأل؟ ولماذا ترتجف أصواتنا كلما اقترب السؤال من شيء عشنا طويلاً نحتمي به؟ كأن ما نؤمن به بيت قديم، نعرف مواضع الشقوق في جدرانه، ونعلّق فوقها صوراً نحبها، ثم نخشى أن نحرّك صورة، فيرى العابرون كم تعب البيت في حملنا.

نرث الكثير يا عزيزي، حتى طريقة الخوف. نرث الكلمات التي نقولها حين نُسأل عن أنفسنا، وما ينبغي أن نحبه، وما يجب أن نخجل منه، ثم نمضي في الحياة نحرس هذا الميراث، ونظن أننا اخترناه. وحين ينهض بداخلنا سؤال صغير، نعامله كغريب جاء يطالبنا بمكان في منزل لا يتّسع لأهله.

ولكن ماذا نفعل بتلك الروح التي لا تكفّ عن الطرق؟ نفتح لها كتاباً، فتسأل عن الطريق. نخبرها بما عرفناه عن الحياة، فتسأل عمّا عشناه منها. ونعدها بأننا سنخرج حين نفهم أكثر، فتجلس قرب النافذة، وتراقب أعمارنا وهي تعبر من الجهة الأخرى.

ذات مساء، سمعت ضحكة رجل في مقهى. كان يضحك حتى يميل بجسده فوق الطاولة، ثم يمسح عينيه ويعود إلى حديثه. لا أعرف ماذا كان يحمل حين دخل، ولا ما الذي ينتظره عند العودة، لكنني أدركت أنني منذ زمن أؤجّل ضحكتي حتى يهدأ كل شيء، وأؤجّل محبتي حتى أطمئن، وأؤجّل خطوتي حتى أرى آخر الطريق.

كم من العمر نحتاج لنمنح أنفسنا إذناً بالعيش؟

أخشى أن أفتح الباب فأفقد شيئاً مما حفظته، وأخشى أن أبقيه مغلقاً حتى أنسى لماذا كنت أحرسه. وبين الخوفين،

أمدّ يدي إلى المقبض، ثم أتراجع، وأقنع نفسي بأن الغد أكثر ملاءمة.

وفي كل ليلة، قبل أن أنام، يأتيني السؤال الذي لم أجد له موضعاً بين كتبي: حين أدافع عن حياتي بهذا العناد، أيّ حياة أقصد؟ تلك التي عشتها، أم التي ما زلت أمنعها من الحدوث؟

ثلاثة أسطر في الطريق

في الطريق إلى العمل، نحمل وجوهنا كما نحمل المفاتيح، نتأكد من وجودها قبل أن نغادر، ثم لا نلتفت إليها حتى نعود. نمضي بين الناس بما يكفي من الصمت لنصل، نحسب الدقائق التي تأخرناها، والأيام التي تفصلنا عن الراتب، وما ينبغي أن نشتريه حين يسمح آخر الشهر.

كان الصباح يشبه ما قبله. وقفت أنتظر، وأراقب الطريق الذي حفظت حفره، حتى صرت أعرف متى سيهتز جسدي قبل أن تبلغها الحافلة. وعلى الجدار المقابل، بين إعلان عن منزل لن أسكنه، وآخر عن رحلة لا أملك ثمنها، كانت هناك قصيدة من ثلاثة أسطر.

لا أذكر الآن كلماتها كاملة. أذكر أنها تحدثت عن نافذة، وأن أمي كانت تترك نافذة المطبخ مفتوحة في الصباح، وأنني منذ أعوام أجيب عن سؤالها: «متى تأتي؟» بعبارة واحدة، أغيّر نبرتها كل مرة: قريباً.

كيف استطاعت تلك الأسطر أن تعرف الطريق إلى هناك؟

كان الناس يعبرون أمامها، يحجبون كلمة ثم يكشفونها، وأنا أعيد القراءة كأنني أحاول أن أسترد شيئاً سقط مني في زحام قديم. تأخرت الحافلة، وللمرة الأولى لم أنظر إلى الساعة. كنت أفكر في البيت، وفي صوت الملعقة حين تحرّك أمي الشاي، وفي أشياء صغيرة تركتها خلفي وأنا أتعلم كيف أصبح رجلاً مسؤولاً.

وصلت الحافلة، وحملتني إلى العمل. جلست بين رجلين يتحدثان عن الأسعار، وفتحت هاتفي لأراجع ما ينتظرني

من رسائل. كان النهار يطلب حصته المعتادة، ولم يكن لديّ ما يبرّر التأخر.

ومع ذلك، كتبت إلى أمي: «هل ما زلتِ تفتحين نافذة المطبخ في الصباح؟»

ثم بقيت أنظر إلى السؤال. كم سيبدو غريباً لها، وكم احتجت إلى طريق طويل، وثلاثة أسطر على جدار، كي أسألها عن شيء أعرفه.

بقايا سؤال

كنت أبحث بين أوراقي عن صورة قديمة، فوقع بين يديّ مظروف يحمل خطّه. اسمٌ لم أنسَه، ولكنني لم أعد أذكر متى توقفت عن انتظار رسائله. حللت الخيط الذي جمعت به أوراقه، وأخذت أعبر بين التواريخ، أقرأ أحاديثنا وتفاصيل صغيرة حسبت أنني نسيتها، حتى بلغت آخر ما كتب: «هل أزعجتك بشيء؟»

بقي السؤال أمامي. نظرت إلى التاريخ، ثم عدت إلى الكلمات، كأن بينهما خطأً ينبغي أن أصحّحه. كيف مضى كل هذا الوقت، وظلّ يسألني من تلك الليلة، وأنا أفتح صندوق البريد، وأجيب عن رسائل أقلّ أهمية؟

أذكر أنني كنت متعباً حينها. كان في حياتي ما يكفي لأضيق بنفسي، وكنت أحسب أن من يحبّني سيفهم

صمتي دون شرح. تركته يؤوّل غيابي وحده، ويبحث في كلماته عن ذنبٍ ارتكبه، بينما كنت أؤجّل الجواب إلى مساء أكون فيه أكثر قدرة على الكتابة.

ثم اعتدت غيابه. مرّت أيام لم تصلني فيها رسائله، فخفّ عنّي عبء الجواب. لم أسأل نفسي عمّا كلّفه هذا الهدوء، ولا عن عدد الأوراق التي ربما بدأها باسمي ثم مزّقها. لا أعرف ما حدث في جهته من الصمت؛ كل ما أعرفه أنني نمت ليالي كثيرة، وفي درج مكتبي سؤال ينتظرني.

هل نحن طيّبون كما نروي عن أنفسنا، يا عزيزي؟ أم أن ذاكرتنا تحسن ترتيب الحكايات، فتتركنا دائماً في الموضع الذي نستحقّ فيه العزاء؟

لقد حدّثت كثيرين عن الذين خذلوني. وصفت لهم وقع الانتظار، وكيف يستطيع غياب صغير أن يملأ غرفة كاملة. كنت أعرف ذلك كلّه، ومع هذا تركت أحدهم

يصغي إلى خطوات ساعي البريد، ويحسب المسافة بين مدينته ومدينتي، ثم يعيد قراءة آخر رسالة منّي، لعلّه يجد فيها ما يبرّر تأخّري.

عدت إلى مسوّدات أجوبتي القديمة. رأيت كلمات مقتضبة، ووعوداً بالكتابة حين يهدأ الوقت، وأحاديث طويلة اختصرتها بسؤال لم أنتظر إجابته. تذكّرت كم كنت واثقاً بأنني لم أؤذه؛ لم أكتب له كلمة قاسية، ولم أطلب منه الرحيل. كنت أترك له، في كل مرة، ما يكفي من الأمل ليشتري ورقاً جديداً، ثم أعود إلى حياتي مطمئناً إلى وجوده.

أردت أن أعتذر. قرّبت المصباح، وبسطت أمامي ورقة. كتبت عن تعبي يومها، وعن أشياء لم أخبره بها، ثم قرأت ما كتبت، فوجدتني أطلب منه أن يفهمني مرة أخرى. حتى في اعتذاري، كنت أضع بين يديه عملاً جديداً: أن

يبحث لي عن عذر، وأن يساعدني على احتمال صورتي في ذاكرته.

شطبت السطور، وبقي أثر الحبر ظاهراً تحتها.

ماذا لو كان قد استراح أخيراً؟ هل أبعث إليه برسالة توقظ انتظاره القديم لأن ضميري استيقظ متأخراً؟ وهل أخشى عليه من عودتي، أم أخشى أن يصل جوابي، ثم تمرّ الأيام دون أن أسمع خطوات البريد عند بابي؟

أخذت ورقة أخرى، وكتبت: «أعرف أنني تأخرت...»

ثم توقفت. ظلّ المظروف مفتوحاً إلى جواري، واسمه الذي كتبته على صدره ينتظر تمام الرسالة. وتحت يدي، كانت ورقته القديمة قد اصفرّت عند الأطراف، أمّا السؤال، فبقي واضحاً، أقرأه هذه المرة دون أن أجد شيئاً أقوله دفاعاً عن نفسي.

تاريخ لا يشيخ

كتبتُ التاريخ أعلى الورقة، ثم توقفت.

كان في هذا اليوم شيء أعرفه قبل أن أستعيد اسمه. أبقيت القلم بين أصابعي، وأخذت أحسب السنوات، حتى عرفت كم تبلغين من العمر الآن. ابتسمتُ قليلاً، ثم أوجعني أنني ما زلت أعرف عمركِ، وأجهل المدينة التي تسكنينها، والطريق الذي تعودين منه، وما إذا كنتِ ما زلتِ تتركين شعركِ ينسدل على عينيكِ حين تضحكين.

مرّ زمن طويل، وتغيّرت أشياء كثيرة، وهذا الموعد ما زال يجدني، أينما كنت.

أذكر أنني دخلت المتجر قبل عيد ميلادكِ بيومين. رأيت وشاحاً بلون تحبّينه، ومددت يدي ألمس طرفه، أتخيّل كيف سأضعه بين يديكِ، وبأيّ كلمة أبدأ حين تسألينني لماذا أتعبت نفسي. كنت قد هيّأت الجواب، وابتسامة صغيرة أستقبل بها فرحكِ، حتى سألته عن الثمن.

قاله البائع، وبقي ينظر إليّ.

أعدتُ الوشاح إلى مكانه، وقلت: «لم يعجبني لونه».

خرجتُ وأنا أحفظ لونه، وطريقة انثنائه فوق الرفّ، والخيط الرفيع الذي تدلّى من طرفه. طوال الطريق، كنت أفتّش في جيبي عن النقود التي أعرف عددها، كأن العدّ مرة أخرى قد يمنحني ما ينقصني.

كنتِ فتاة بسيطة. أذكر كيف احتفظتِ بورقة صغيرة رسمتُ على طرفها وجهكِ، وكيف أريتِني إيّاها بعد أشهر، وقد أتلف الطيّ بعض ملامحها. كنت أعرف أن كلمة منّي تكفي لتفرحي، ومع ذلك اشتهيتُ أن أحمل إليكِ شيئاً اخترته من أجلكِ، وأن أعطيكِ إيّاه دون أن أشرح لكِ حياتي كلّها.

في مساء عيد ميلادكِ، أطلتُ النظر إلى يديّ قبل أن آتيكِ. غسلتهما من تعب النهار، ومسحتُهما، ثم وقفتُ أرتّب ثيابي وأتدرّب على حديث عادي. خشيتُ أن تسأليني عمّا يشغلني، فتضطرّي إلى مواساتي في يوم جئتُ لأفرحكِ فيه.

كنت أعرف كيف أحبّكِ. أعرف ما يُضحكِك، ومتى يضيق صدركِ، وأيّ صمتٍ يعني أنكِ تنتظرين منّي أن أقترب. وأمام هدية صغيرة، وجدتني أعجز عن احتمال نفسي.

ثم مضت الحياة، وافترقنا. تراكمت بيننا أيام لم نعرف فيها شيئاً عن بعضنا، حتى صار السؤال عنكِ يحتاج إلى شجاعة لا أملكها، وإلى حقٍّ لا أدري إن بقي لي منه شيء.

كبرتُ. صارت في يدي نقود كنت سأعدّها ثروة يومها، ودخلت متاجر كثيرة، واشتريت أشياء نسيت بعضها قبل أن أصل إلى البيت. وأحياناً، حين يعرض عليّ بائع لوناً آخر، أجدني أتذكّر الوشاح، فأطيل الوقوف دون سبب يفهمه.

هل أشتاق إليكِ في هذا اليوم، أم أشتاق إلى فرصة أعود بها إلى ذلك الشاب، وأضع في جيبه ما كان ينقصه؟ ماذا كنت سأقول له؟ وكيف أقنعه، وهو يقف مطأطئ الرأس أمام الرفّ، بأن يرفع عينيه؟

نظرتُ إلى الورقة من جديد. جفّ الحبر في موضع التاريخ، وامتدّ النهار من حولي، ينتظر أن أعود إلى ما كنت أفعله.

كتبتُ اسمكِ في الهامش، بخطّ صغير.

ما زلت أذكر يوم ميلادكِ، وأجهل في أيّ يوم كففتِ عن انتظاري.

الغريب القريب

كيف يستطيع الذين نحبّهم أن يغادروا، وتبقى أصواتهم تعرف الطريق إلى غرفنا؟ يبتعدون حتى نعجز عن تخيّل الأماكن التي صاروا إليها، وتظلّ ضحكة صغيرة منهم قادرة على إيقاظ بيتٍ أطفأنا مصابيحه منذ ساعات.

في ليلة ممطرة، سمعتُ النافذة تضرب إطارها، فنهضت. كانت الريح تدفعها إلى الداخل ثم تجذبها، وأنا واقف أمامها، أمدّ يدي وأتراجع، كأنني أخشى أن أقطع على أحدهم طرقه الطويل على الباب.

اقتربتُ، ولمست الخشب الذي تقشّر طلاؤه تحت أصابعي. كم شتاءً مرّ عليها وهي في موضعها، تحمل ما يتركه العابرون من نظرات، وتفتح صدرها لطريق لا يستطيع أن يعود إليها خطوة واحدة؟

كانت ستارتها قد غابت منذ زمن. بقيت حلقة صغيرة معلّقة عند الطرف، تتحرّك كلّما اشتدّت الريح، كأنها ما زالت تحمل شيئًا. أطلت النظر إليها؛ فأنا أيضًا ما زلت أتهيّأ لأحاديث انقطعت، وأحفظ في يومي موضعًا لأناسٍ اتّسعت حياتهم بعيدًا عنّي.

نرتّب غيابهم بعناية، يا عزيزي. نرفع الكوب الذي تركوه، ونطوي الغطاء، ونعيد المقعد إلى مكانه، ثم نمضي أعوامًا نتعثّر بما أخفيناه. وقد يأتي ضيفٌ فيجلس حيث كانوا يجلسون، فنبتسم له، ونُطيل النظر إلى وجهه حتى يرتبك، وهو يجهل أنه حرّك داخلنا بيتًا كاملًا.

بعد رحيلك، سرتُ كثيرًا. تعرّفت إلى شوارع جديدة، وتعلّمت أين يبيعون الخبز باكرًا، وأيّ الأرصفة أقلّ ازدحامًا عند المساء. صار لي في الحيّ بائعٌ يعرفني، وجارٌ يردّ تحيّتي، ومفتاحٌ أخرجه من جيبي دون أن أنظر إليه. ومع هذا، كنت كلّما بلغت بابي شعرت بأن أحدًا أخطأ حين منحني هذا العنوان.

أدخل، فأعرف مواضع الأشياء، وأتردّد في اختيار المكان الذي أجلس فيه.

من يسكن هنا؟ الرجل الذي يعرفه الناس في النهار، أم ذلك الذي يعود إليك كلّ ليلة، ويحاول أن يستأنف حديثًا قلتِ فيه كلمتك الأخيرة؟

شدَدتُ مزلاج النافذة، فسكنت. بقيت يدي على الخشب قليلًا، وأخذت أنظر من الزجاج إلى النوافذ المضيئة في الجهة المقابلة. خلف إحداها، ارتفعت يدٌ تسحب ستارة، فاختفى الضوء ببطء.

عدتُ إلى مقعدي، ووضعت يديّ في حجري. كان المطر يتابع هطوله، وفي الغرفة هدوءٌ أعرفه جيدًا. مددت يدي إلى المقعد المجاور، ورفعت عنه كتابًا، ثم انتبهت إلى أنني أفسح لكِ مكانًا من جديد.

صوتَ يشبه أبي

عدتُ إلى البيت أحمل نهاري على كتفيّ. وضعت المفاتيح قرب الباب، وخلعت معطفي، ثم جلست كأنني أُعيد جسدًا مستعارًا إلى صاحبه، وأنتظر أن يتعرّف إليّ.

جاء ابني وفي يده ورقة. كان يتحدث بسرعة، يتعثّر بفرحته، ويقرّب الرسم من وجهي. رأيت شجرة، وشمسًا أكبر من البيت، وأشخاصًا تتجاوز ابتساماتهم حدود وجوههم. مددت يدي أُبعد الورقة قليلًا، وقلت:

«ليس الآن، ألا ترى أنني متعب؟»

سكت. أخذ رسمه ومضى، وبقيت الجملة في الغرفة.

عرفتُ صوتها قبل أن أنتبه إلى أنها خرجت منّي. التفتُّ نحو الباب، كأن أبي دخل خلفي، وعلّق معطفه في المكان نفسه، ثم جلس داخل حنجرتي.

كم يحتاج الصوت إلى سنوات كي يعود؟ وأيّ طريق يسلكه بين فمٍ أخافنا في طفولتنا، وفمٍ صرنا نعتذر به عن خوف أطفالنا؟

كنت أحسب أنني تركت تلك الكلمات في البيت القديم. غادرتُه بثيابي وكتبي، وتوهّمت أن المسافة كافية، وأن الإنسان يستطيع أن ينجو من ماضيه إذا غيّر عنوانه. ثم جاء طفل يحمل شجرة، فاهتزّت جدران منزلٍ ظننته بعيدًا، وسقط من شقوقها صوت أبي.

أذكره عائدًا عند المساء. كان يجلس طويلًا قبل أن يفكّ رباط حذائه، ويُمرّر يده على وجهه كأنّه يمحو عنه ملامح

النهار. كنت أراقبه وأنتظر أن يرفع رأسه. في جعبتي يومٌ كامل، وفي يده صمتٌ لا أعرف كيف أفتحه.

كنت صغيرًا، وكان انتظاري يتّسع له كلّه.

واليوم، من موضعي على المقعد، رأيت شيئًا من التعب الذي كان يجلس عليه. رأيت كيف يستهلك الخارجُ الإنسان، وكيف قد يعود إلى بيته بما تبقّى منه، ثم يوزّع هذا القليل بيدٍ ضاقت حتى عن نفسها. وأوجعني أن الطفل الذي كنته ما زال واقفًا عند باب تلك المعرفة، يسأل: وأين كنت أضع فرحتي إلى أن يرتاح؟

هل يمنحنا فهمُ الألم حقّ المرور فوق أثره؟ وكيف أضمّ تعب أبي ووجع طفولتي إلى صدر واحد، دون أن أُسقط أحدهما كي أحتمل الآخر؟

نظرت إلى يديّ. أخذت أصابعي شكل أصابعه مع العمر، وصارت لي عادته في حكّ جبيني حين أنشغل. كنت أبتسم لهذه الشبهات الصغيرة، أراها خيوطًا تصلني به. أمّا الآن، فقد خشيت أن تمتدّ الخيوط إلى ابني، وأن يجد نفسه بعد أعوام يجمعها عن عنقه، وهو يظنّ أنه يخلع صوتي.

ما الذي نتركه في الذين نحبّهم دون أن ندري؟ أيّ الكلمات تستقرّ فيهم، ثم تنتظر أجسادًا أكبر كي تنطق من خلالها؟

كان باب غرفته مواربًا. رأيته جالسًا على الأرض، يُكمل تلوين الشجرة. انحنى فوق الورقة، وأخفى بذراعه جزءًا منها حين شعر بوقوفي.

أردت أن أقول إنني كنت متعبًا. بلغت العبارة شفتيّ، فسمعت فيها رجاءً قديمًا بأن يعذر الصغيرُ الكبيرَ قبل أن يفهم ما حدث.

بقيت عند العتبة قليلًا. كان في داخلي رجلٌ يريد أن يشرح نهاره، وطفلٌ ينتظر منذ سنوات أن يُسأل عن يومه.

رفعت يدي إلى الباب، وطرقت برفق.

ثم انتظرت أن يسمح لي بالدخول.

دكّان الطمأنينة

كان يخاف على الأشياء التي يحبّها حتى يكاد لا يلمسها. إذا ضحكت أمّه أطال النظر إليها، يحاول أن يحفظ وجهها كما هو، وإذا ودّعه صديق بقي عند الباب يتابع خطواته، كأنّ في وسعه أن يؤخّر الغياب بإطالة الوقوف.

وحين يفرح، كان يتحسّس فرحته بحذر، كما يتحسّس المرء شرخًا في إناء عزيز؛ يخشى أن يُحكم قبضته فيكسره، وأن يرخيها فيسقط.

ذات مساء، وجد في زقاق قديم دكّانًا صغيرًا، كُتب فوق بابه: «الطمأنينة بضمان».

دخل.

خلف المنضدة جلس رجل يقلب دفترًا، وعلى الرفوف عُلّقت أوراق مختومة. قرأ إحداها: «ضمان ضدّ وجع الفراق». بقي يتأمّلها طويلًا، ثم سأل عن الثمن.

قال البائع: «قدرتك على التعلّق».

مدّ يده إلى صدره. تذكّر الساعات التي قضاها ينتظر، والأسماء التي كانت تكفي لإفساد نومه، وارتجاف صوته حين يسأل أحدهم أن يبقى.

«وهل أتذكّرهم؟»

«ستتذكّر كلّ شيء».

وقّع.

خرج وقد خفّ شيء في داخله. مرّ بالطريق الذي كان يتحاشاه منذ رحيل امرأة أحبّها، فرأى شرفتها، وتذكّر يدها فوق السور، ثم تابع سيره. لم يحتج إلى الوقوف، ولا إلى اختراع سبب يبرّر به التفاته.

نام تلك الليلة حتى الصباح.

وبعد أيام عاد إلى الدكّان. كان يحمل في جيبه جوابًا يعتذر فيه ناشر عن قبول كتابه. وضع الورقة أمام البائع، وقال: «أريد أن أنجو من هذا أيضًا».

طلب البائع طموحه.

تذكّر الأعوام التي قضاها يصغي إلى حياة يتمنّاها، فيما حياته تمضي خلفه دون أن ينتبه. أخرج مخطوطه، ومرّر أصابعه على أطرافه المهترئة، ثم تركه فوق المنضدة.

وفي زيارته الثالثة، طلب ضمانًا ضدّ الندم.

قال البائع: «ثمنه قدرتك على الاختيار».

تردّد. أخذ يقرأ ما وقّعه من قبل، ويحاول أن يتخيّل ما كان سيحدث لو لم يدخل هذا الزقاق. ضاق بالاحتمالات التي تزاحمت حوله، وبالأبواب التي يُفتح خلف كلّ واحد منها باب آخر.

وقّع مرة أخيرة.

مضت أيام هادئة. صار ينهض في موعده، ويسلك الطريق الذي اعتاده، ويجيب حين يُسأل. ترك الرسائل على الطاولة، والكتب في مواضعها، ولم يعد المستقبل يوقظه كي يطالبه بشيء.

وفي موعد زيارته المعتاد، ذهب إلى أمّه.

فتحت له، ومسحت يدها بطرف ثوبها قبل أن تلمس وجهه. قرّبته من الضوء، وسألته إن كان يأكل جيدًا. جلس حيث يجلس دائمًا، وراقبها تحمل إليه الخبز، وتزيح عن مقعده ثوبًا كانت ترقّعه.

عرف رائحة البيت. تذكّر صوته صغيرًا يناديها من الفراش، ويدها وهي تختبر حرارة جبينه، والطمأنينة التي كانت تأتيه حين يسمع حركتها في الغرفة المجاورة.

كانت الذاكرة تُريه ذلك كلّه بوضوح موجع للقارئ وحده؛ أمّا هو، فظلّ ينظر.

قالت: «ما بك؟»

أجاب: «لا شيء».

وضعت يدها فوق يده. كانت دافئة، وكانت ترتجف قليلًا. تذكّر أنه كان يخاف يومًا على هذه اليد من البرد، وأنه اشترى لها قفّازين، ثم عاد يستبدلهما لأن أصابعها أنحف ممّا تخيّل.

حاول أن يستعيد ذلك الخوف. انتظر أن ينهض في صدره شيء، أن تدفعه رغبة صغيرة إلى إحكام قبضته حول يدها.

بقيت أصابعه ساكنة.

حين غادر، وقفت عند الباب تناديه أن ينتبه لنفسه. سمعها، وأدار رأسه، ولوّح لها كما اعتاد.

وفي الطريق، أخذ يقارن بين ما يتذكّره وما يجده في داخله. كان يعرف أنه أحبّها، ويعرف أن جلوسه إلى جوارها كان يكفي ليخفّ عنه تعب أيام كاملة. أمّا

الآن، فقد خرج من بيتها وفي ذاكرته تفاصيل الزيارة، دون رغبة تحمل واحدة منها إلى قلبه.

قادته قدماه إلى الزقاق.

دخل الدكّان، ووضع ضماناته أمام البائع.

«أريد أن أخاف عليها مرة أخرى».

رفع الرجل رأسه.

«أريد أن يصعب عليّ الوداع. أن أنتظر جوابًا. أن أعود إلى ورقة كتبتها فأكرهها، ثم أحبّها في الصباح. أريد أن تضع أمّي يدها على يدي، فأعرف ماذا أفعل».

دفع البائع إليه ورقة بيضاء وقلمًا.

«اكتب ما تريد استعادته».

أمسك القلم. نظر إلى البياض، واستحضر وجه أمّه، ومخطوطه فوق المنضدة، وتلك الشرفة التي مرّ بها دون أن يقف. اجتمعت أمامه الأشياء التي سلّمها بيديه، وبقي ينتظر أن تتحرّك يده نحو إحداها.

طال صمته.

ثم رفع عينيه إلى البائع، وسأله بصوت خافت:

«هل تستطيع أن تختار لي؟»